« مأساة الويشى»

الناس فى هذه الأيام يروون عجباً ، ويسمعون ماهو أعجب من العجب ، وشيطان الليل البهيم يهجم بشراسة على «السيد عبدالفتاح الويشى» ، موظف العُهد البسيط فى إحدى المصالح الحكومية ، الناقم دائماً ، والثائر على حياته أيما ثورة ، إذا أحب يوماً فتاة قالوا مجنوناً ، وعند مواقف الشرف والأمانة يقولون منحوساً ، غبياً ، لايملك من حطام الدنيا غير البؤس وسيارة عتيقة وثلة من التعساء ، كانوا ستة هو سابعهم ، ثامنهم أم خامسهم لايدرى ، كل شئ عنده عبث ، سراب ، وساعة الزمن المقلوبة لم تزل الأيدى الخبيثة تعبث بعقاربها ، وبمقدرات وجوده، وتجعل الماضى حاضراً ، والنهار ليلاً غشوماً .

أصواتهم ملء أذنيه ، أنفاسهم ، تشنجاتهم ، وهذيان والده السكير العربيد كأنما تنبعث من صوت موتور السيارة القديمة الدائر ، وعينان هادئتان ترنوان إليه من خلال المرآة الجانبية عن يساره ، تطفئهما سحابة دكناء من عادم السيارة ذاتها ، وضوء خاطف لسيارة ما فارهة تنسرب على مهل من الخلف ، ثم تمرق كالسهم بجانبهم ، أمامهم ، تتبدد مع ضحكة رجولية خشنة تنز حسداً جاءت من المقعد الخلفى للسيارة :

- حظوظ ياعالم المحظوظين ، هيه !.

يمتعض ، يترنح بالسيارة يميناً ويساراً على جانبى الطريق الوعرة ، يلكزه فى جانبه ، يسبه كعادته بسبب وبلاسبب ، وبصوت أجش يذوب ثمالة يصرخ فيه بحدة متناهية :

- أفزعتنى يابصقة الشياطين هاهاهاها .

تنثال عليه الصور والذكريات الأليمة انثيال الغيث على قمم الجبال ، يرمقه بكراهية ، يتشنج ، عيناه المضطربتان تزوغان فى المرآة قدامه ، يلمحها نائمة من فرط التعب المكنون ، يخفق قلبه بشدة ، يحس تَلَهُّب النار فى أحشائها ، وعن يساره تبدو عينا أمه الملائكيتين تواسيانه ، تهامسانه بحنان جارف : «أن لاتشغل بالك بشئ غير الطريق ، قُد السيارة برفق ياولدى» .

يتفزع يهب مذعوراً ، يرفع رأسه عن ذراعه الملفوفة تحتها كثعبان الأناكوندا الرهيب ، يتطلع مرتعشاً إلى لاشئ ، لازال الهاتف يرن رنيناً متصلاً ، صوتها الداوى يزلزل جنبات الغرفة المظلمة من حواليه ، يطعنه فى روحه ، يواسيه فى ضحاياه ربما للمرة المئة بعد المليون ، هكذا خيل إليه هذا الرقم المستحيل ، كالمجنون راح يصرخ فيها ، لايصدق ماسمعه ، يكرر عليها الأسماء اسماً بعد اسم ، يشعر بدوار سخيف يريه الدنيا ألواناً كئيبة ، يأخذه إلى قاع سحيقة، خانقة ، يجفل من الحيرة إليها ، وبالكاد يهمس فى نفسه :

- أكلهم ذهبوا وتبددوا كالدخان ؟!!! .

كان لايدرى هل يصرخ فرقاً ، هل يرقص طرباً ، أم يتصلب كزوجة لوط عندما أصبحت عموداً من المِلح ، صوتها الهاتف به مرة أخرى يأخذه من هوجة نفسه إلى غيبوبة قاتلة ، لازالت تكرر أسفها لا فى ضحاياه الست بل الخمس فقط ؟!!.

ينتفض فى جلده كالملووث ، يسألها بلهفة عشرات المرات ، ويسبها ويلعنها كعادته مئات المرات : « أحقاً ماتقولين ياملعونة ؟!» تهز كتفيها دهشة :

- تصورت أن هذا الخبر سوف يسعدك !!.

كالسهم ينطلق فى أثر نفسه ، لم يكن يدرى شيئاً عن وجهته فى هذه الليلة الحالكة السواد ، ولاشئ يدور فى خياله غير هواجسه الهائجة ، وسؤال سخيف أيقظ اليأس والأمل معاً فى أعماقه يتصارعان فى داخله عليه ، يمزقانه ، العالم كله يصبح فى عينيه الكليلتين وحشاً رهيباً جاء كى ينتقم منه ، كان عليه أن يعيش فى بحر يمور بالمتناقضات ، الحب والأمل ، الرهبة، الخوف والكراهية فى لحظة واحدة ، لحظة كانت حُبلى بقرار عظيم !.

سيارته المحطمة تماماً تنهب الأرض ورأسه نهباً رهيباً ، يكاد يخرج بها متمرداً على الزمان والمكان معاً ، ينتبهون ، لايصدقون أنفسهم ، تجفل أفكارهم إلى عقله، وأسفل عجلات السيارة الأربع، يتملكهم الذعر الشديد ، إلاها ، كانت ساجية كطوف هادئ على صفحة بحر مضطرب ، وقد هفهفت خصلات شعر رأسها البيض

على ستارة الظلام القاتمة ، يختنق ، يلقمه فم الشيطان اللعين ، ينزلق إلى أمعاء موحشة هلامية الشكل ، نتنة الرائحة ، يلفظهم إلى الجحيم ، يصرخ بشنآن فى أعمق عمائقه :

- سوف أقتله ان كان هو ، صديقى اللدود ، المتزمت ، خرب الذمة ، ساعدته وخذلنى ، تزوجها ومنعنى ، المجرم فتق عرش القدسية ، أودع بصمة الجانى فى حشاياها ، وهى كما هى حجر صوان ، صلد ، لم تَثُر مرة واحدة من أجلى ، أو من أجل أى شئ، هه يقولون أن المرة الوحيدة التى صرخت فيها وضعت طفلاً كئيباً مثلها ومثل أبيه !.

يصرخ فيها بحدة وقد احتدم الموقف بين الجميع بشدة ، ووالدهما فى الركن القصى شبه المعتم يجرع من الكأس المترعة بشراهة منقطعة النظير ، يراقص نفسه ، ويدندن مغنياً بصوت تائه عن الواقع ، ويضحك على كل شئ من أجل لاشئ .

- خذى موقفاً جدياً من أجل أخيكِ ، افعلى شيئاً ذا قيمة فى حياتك ياعديمة القيمة .....

بضحكة ماجنة يقاطعهما ، ثم كسلطان طاغية يكشر عن أنيابه المتفحمة من شدة إفراطه فى التدخين وتناول المكيفات ، يصرخ فيه قائلاً ببرود :

- قلت لا وألف لا ، لن يدنسها حشرة فقير حقير عديم الرجولة مثلك ، ياأبله يا ، يا ، هاهاها .

ويغيب عن وعيه فى بحر هادر من الشتائم واللعنات وكم من مرة حالت بجسدها الهزيل بين الديكين المتوحشين ، كاد نصل السكين الحام يومها يبقر أحشاءها ، يتنهد غيظاً ، يأخذ نفساً نارياً بصعوبة بالغة ، يركن ابتسامة خبيثة على جانب شفتيه: «نعم الحمى أنتِ ياملاكى».

يتقدم نحوها يضمها بنشوة تحت إبطه ، يطوقها بذراعه السمين المترهل ، يمسح وجنتها ككلب أجرب بقبلة مقززة ، وطفلهما فى المهد قريب ، يهدهدانه ، وعينا أمه العاجزتين تشتمان ثم تتحولان إليهما ، وقد وقفا بعيدين عن بعضهما البعض عاجزين مشتاقين يتعانقان ، برفق تضمهما إلى قلبها الحنون .

يزداد انفعالاً ، الحيوانة تستحق الموت كزوجها ، مايزال يردد القسم المجنون ، سوف أقتلهم وأمزقهم إرباً إرباً ولوكانوا فى بطن الحوت ، يفزعه ذلك الخاطر الرهيب المتجدد ، والصاحى لتوه من خدر الموت ، يهبون ، ينفضون غبار القبور فى وجهه الملتاع ، كالأشباح المرعبة يتقدمون صوبه ، يتراجع القهقرى ، يسقط فى هوة لاقرار لها ، ينتفض ، يمسح غبشة الليل البهيم بصورتها الحالمة ، الملاك الطاهر ، ذات الشفتين القرمزيتين ، الخصر الضامر كغصن بان رهيف ، والنهدين الكاعبين ، كثيراً ماتوسل إلى العتل أخيها كى يزوجه السماء والأرض ، البحر والهواء ، لقد كانت كل حياته .

يصرخ كالمصروع ، يخبط بصفحة يده على مقود السيارة ، الملعون المال عنده كل شئ ، هه إنهم يبيعون ملائكة هذا الزمان بثمن بخس ، حفنة من الذهب الصدئ ، قلائد الصخور !.

يتنهد بشجن شديد وقد ترقرقت صورتها أمامه على صفحة الأفق الدامى :

- ليتها هى ، ليتنا معاً بدون هذين الملعونين ، شقيقها وشيطان الفضيحة الذى لم ير نور الحياة بعد الكامن فى أحشائها .

هيه العند جنون ، والحب يصبح شيطاناً كتوماً لحوحاً ، لايلبث أن يفضح نفسه بنفسه ، حين يضحى عرياناً مجرداً من كل شئ فى لحظة ما والظلام شارع جناحية للأفق ، يتمردان، يلوذان إلى عالم الشبق المجنون ، يلتحمان وكأنهما من فرط الحب يتقاتلان ، يصبحان واحداً فى مجمرة ، يتلاشيان وراء غلالة من أدخنة الأنفاس الساخنة ، يصدمهما وجودها الفجائى، تعنفهما بجنون ، تنشب أظافرها حسرة فى جسديهما العريانين الملتصقين، والدموع شلالاً يتفجر من عينيها على صفحة وجهها الطيب المتغضن ، يتنهد بحسرة دامعاً : «هيه ياللفضيحة والندم القاتل ، ليتنى ألقاها الآن».

يصرخ فى نفسه بصوت عالٍ ديماجوجى :

- أيها الخاطى الشرير، ارتم فى أحضانها ، عفر وجهك الدميم بثرى قدميها الطاهرتين .

كانت قبره فيه سره ومثواه ومرساه ، والنسمة المنعشة حين تكون الأجواء قائظة لاتحتمل ، والدفء والأمان حين تتجمد سبل الحياة فى وجهه ، تؤنبه نظراتها الحانية تجعله عرياناً كتلك الليلة الشاتية أمس غير البعيد ، الحياة اختلت موازينها، يتصبب عرقاً ، ينفعل عليها كعادته عندما يفلت منه الزمام : «.....أنتِ ودائماً أنتِ ، فى كل مكان وفى صحوى وفى منامى ، وبين العينين والجفنين ، وبين أنفاسى ، دعينى وشأنى ياشيخة .....»

تضربه وتنهره بحب : «إيَّاك ثم إيَّاك أن تفعل ، لاتَخُن الأمانة، الإجرام ليس له حدود ، وعليك أن تصلح ماأفسدت يداك .....»

كلماتها الطاعنة فى جسده كسن السكين تشل كلتا يديه عن جسدها المعدنى الموشى بشذرات من الذهب البارق لبرهة ، ينثر الأوراق الملونة تحت قدميها ، وفوق هامتها ، ويدسها فى قبضة يدها ، تجففها بدموعها ، تواريه جسدها الضعيف ، تود أن تخفيه عن العالم كله حتى أم رأسه فى حشاياها كما كان طفلاً جهولاً، لايعرف نفسه ، ولم يزل ، ينظر ناحيته بجانب عينيه متنهداً تنهيدة غضب حارقة : «آه ياعلة وجودى ، إن مجرد ذكر اسمك يكئبنى أيها المبصر الأعمى».

صورته الشيطانية تطغى على قسمات وجهه شيئاً فشيئاً ، وسكره البين لازال يترنح بهم ذات اليمين وذات الشمال كسيارة انطلقت فى مهب الريح توشك أن تهوى من فوق جرف هار ، انفجار رهيب ، وسحابة سوداء حجبت عن الأعين ضوء القمر الوليد ، صرخات رهيبة مدمدمة ، ولعنات تدوى فى كل مكان .

راح يختنق عندما تنفس الصعداء ، كالمجنون يفتش فى كل مكان ، وتحت الأسرة وفى كل حجرات المكان الغامض المجهول ، وأسفل شجرة السنط الجاثمة كالشبح على رابية البصر ، صوتها الحانى يدفعه إلى غرفة ما موصدة الباب ، يهمس إليها بتركيز عال وقد احتبست أنفاسه فى صدره ، واحتوشت الدموع فى كلتا عينيه المتصلبتين المثبتتين على الباب المغلق :

- أمتأكدة أنتِ أن وراء هذا الباب الموصد شخص ما يخصنى، لم يمت بعد ؟!!.

تضحك بود مصطنع من نظرة جفاء حارقة ، تفتح الباب شيئاً فشيئاً ، يتقدم متردداً للغاية ، يتراجع إلى الوراء ، لازالت دفعة أصابع يدها تنغرز فى فقرات ظهره النافرة ، تؤلمه كطعنة سكين حادة ، يتلفت حواليه كالمجنون ليرى من ذهب بلارجعة ومن عاد ، يصرخ من هول المفاجأة الرهيبة !!؟.

أمام الرجل ذى الزى الأحمر القان توقف متصلباً ، قاض المحكمة راح ينطق بالحكم بصوت جهورى ، ويحيل الأوراق إلى فضيلة المفتى ، وهيهات أن تقطف المشنقة رأس مجنون !! .